# الفصل الثامن

## المهدى المنتظر

عقيدة المهدى من أهم ما عند الشيعة خاصة الاثنى عشرية وتعنى أن الإمام الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى الذى ولد عام ٢٥٥ هـ وتوفى ٢٦٠ هـ فى السنة التى توفى فيها والده الإمام الحسن العسكرى اختفى ولم يمت، ونزل فى سرداب، ولم يخرج منه، وسيظل مختفيا حتى يظهر بشخصه فى زمن ما فى المستقبل، ليملأ الأرض عدلا، بعد أن ملئت جورا وظلما، ويقتص لآل البيت ممن ظلمهم، وأخذ الحكم منهم، وسموا هذا المختفى بـ «المهدى المنتظر».

وعلقوا آمال الناس من أتباعهم، ولاسيما من يحسون الظلم بظهوره، وجعلوهم يتجمعون عند السرداب الذى قيل إنه نزل فيه «وعمره خمس سنوات» واختفى، حيث كان مع والده فى بلدة «سامراء» شمال بغداد.

وهى مدينة «سر من رأى» التى كانت عاصمة أيام الخلفاء العباسيين، واتخذها الإمام الحسن مقرا له، ودفن بها عام ٢٦٠ هـ مع والده الإمام على الهادى (ت ٢٥٤ هـ) ابن الإمام محمد الجواد (ت ٢٢٠)، ومع الإمام الحسن دفنت زوجته «نرجس خاتون»، وأم الإمام محمد المهدى، وعمته «حليمة خاتون» أخت الإمام على الهادى.. كلهم فى مشهد واحد كان فى الأصل دارا لهم يقيمون بها، يسمى بالمشهد العسكرى الآن، وقد اشتهر بالعسكرى نظرا لإقامته فى مدينة «سر من رأى» وكان الجيش العباسى يعسكر فيها.

وحول القبة ساحة كبيرة مرصوفة بالرخام الأبيض، وفى جانب منها نحو الغرب وشمالها قليلا يقع السرداب الذى قيل إن الإمام محمد المهدى الطفل نزل فيه واختفى، ولم يخرج منه.. وهو يقع تحت جانب من المسجد الكبير الذى تقام فيه الصلوات، وكان بينه وبين بيت الإمام الحسن قديما سرداب يمشى فيه إلى المسجد حين الصلاة. وليس له وجود الآن.. ولعل السرداب الموجود الآن والذى قيل عنه. إن المهدى اختفى فيه هو جزء منه، والتساؤل. كيف اخترعت عقول الوسط الإمامى الشيعى حكاية الطفل الإمام الذى اختفى والمسمى محمد المهدى؟

فهـو أولا طفـل لم يتعد الخامسـة من عمره يقال عنه، إنه إمـام، لأنه من ظهر إمام. والإمامة نور فى الأصلاب تنتقل إلى الذرية!! كما يقولون ولم يكن للحسن العسكرى الإمام إلا هذا الطفل، وإن كان بعض المؤرخين يشككون فى وجوده أصلا.. لكن هذا الطفل الإمام الذى تسـبغ عليه كل خصوصيات ومزايا الإمام التى عرفناها سـابقا، مات فى السنة التى توفى فيها والده، وانقطعت بذلك سلسلة الإمامة.. فلم يعد لهؤلاء الشيعة الموسوية الكاظمية الملتفين حول هذه السلسـلة من الأئمة من يتعلقون به كإمـام، ويلتفون حوله ويتجمعون.. بينما هناك من الشـيعة الإسماعيلية المنافسة لهم من يلتفون حوله ويسمونه إمامهم. ظاهرا أو مسـتورا.. وهم غرماء الشيعة الاثنى عشـرية.. فهل ينفضون وينفرطون هكذا وبسهولة، دون إمام يجمع وحدتهم؟

هنـا تفتقت الأذهان عن حكاية تقول إن الطفل محمد المهدى لم يمت، وإنما دخل فى سـرداب أبيه الذى كان موجودا، واختفى ولم يعد.. وهو حى، وسيبقى حيا إلى أن يعود. متـى؟ لم يحـددوا، ولكنهم وصفوه عند عودته بأمل عريض هو أنه سـيملأ الأرض عدلا، بعد أن تمتلئ بالجور والظلم، وينصف شـيعته ويقتص ممن ظلمهم.. هكذا رسموه.. لتظل القلوب متعلقة بإمام ولو غائبا، متجمعة حوله، وإن كان غير موجود، متعلقة بأمل عزيز، ولـو كان أوهى من خيط العنكبوت، لكنه أمل يجمـع العقد الذى كاد ينفرط، حتى كانوا وظلوا يذهبون قرونا، إلى المكان الذى اختفى فيه، ينادونه، ويدعون: أن يعجل الله فرجه، وأن يخرجه لهم لينقذهم مما يعانون.. ونجحت الفكرة تماما، وجمعت الأتباع، وحشـدت لها كل الطاقات العقلية وغير العقلية لزرعها فى النفوس.

وبالرغـم مـن مرور القرون، ومن تفتـح العقول وتقدمها، لا تزال هـذه العقيدة كما هى أسـاس المذهب الاثنى عشرى، وقد نشر العالم الشيعى العراقى الكبير الأستاذ «محمد باقر الصـدر» بحثا حول المهدى[1] قال فيه إن الإمـام الطفل اختفى وغاب عن الأنظار فى أول الأمـر، غير أنه كان دائم الصلة بقواعده من الشـيعة، عن طريـق وكلائه ونوابه الأربعة، واحدا بعد الآخر، حيث كان النائب يحمل إليه منذ غاب أسئلة الشيعة ومشاكلهم – وهو طفل – ويحمل إليهم أجوبته، شفهية وتحريرية.

ووجـدت الجماهير عزاءها فى هذه المراسـلات والاتصالات التى قيـل إنها كانت تتم بواسـطة هؤلاء الأربعة واحدا بعد الآخر لمدة سـبعين عاما، هـى عندهم: الغيبة الصغرى للإمام الغائب!

(١) طبع ١٣٩٨ م. مطبعة أوفست الميناء بغداد.

بعدها انتقل إلى الغيبة الكبرى. بعد أن أصبحت الجماهير مستعدة لتقبل فكرة النيابة العامة عن الإمام الغائب، وبهذا تحولت النيابة من أفراد مخصوصين، كان يعينهم من مقر غيبته. إلى خط عام، وهو خط المجتهد العادل البصير بأمور الدنيا والدين[1] دون حاجة للتعيين من الإمام الغائب!

وهكذا انفتح الباب للنيابة عن الإمام الغائب، ومباشرة سلطاته، لكل ما يقال عنه، إنه «المجتهد العادل البصير» تخضع له الشيعة، كما تخضع للإمام لأنه نائبه! وكم هناك من مجتهد عالم بصير، وباب الاجتهاد عندهم مفتوح، وما أكثر المجتهدين وما أكثر نواب الإمام كذلك!

ويتساءل المتسائلون بحق: لو أن هذا الإمام الطفل عاش، ولم تنقطع سلسلة الإمامة، هل كان أحد يدعى مثل هذا الادعاء؟

وهل ادعاء غيبة الإمام وإلى الآن ولما بعد الآن، وأنه يحكم العالم أثناء غيبته بواسطة نوابه فيه صلاح الدين والدنيا؟

والذين ليست لهم إمامة غائبة أو حاضرة هل ضلوا الطريق وخسروا دنياهم وآخرتهم؟

وهل الذين لهم إمام ظاهر أو غائب، ويسيرون تبعا لهديه أو هدى نوابه. هل حققوا بفضل الإمام أو نائبه صلاح دنياهم وآخرتهم أكثر من غيرهم؟

وهل يتوقف صلاح الدين والدنيا على وجود إمام يحكم من ذرية الإمام علىّ والسيدة فاطمة رضى الله عنهما، أو أن القرآن والحديث كافيان جدا فى هذا. كما قال رسول الله ﷺ «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا، كتاب الله وسنتى»؟ وهل الذين أقاموا الدول الإسلامية فى المشرق أو فى الأندلس من غير الشيعة، وأسسوا الإمبراطورية الإسلامية، وحققوا العزة للمسلمين، وقامت فى أيامهم الحضارة الإسلامية المزدهرة. هل هم مخربون ضالون، ونكبة على الإسلام والمسلمين كما يقول الشيعة؟ وهل الدولة الفاطمية التى قامت فى ظل إمام ظاهر من الشيعة الإسماعيلية، هل حققت هذه الدولة وقد حكمت شعوب المنطقة الإسلامية العربية غربا وشرقا مدة طويلة، هل حققت هذه الدولة بإمامها الظاهر الذى كان يقودها ويوجهها، الحكم المثالى الدينى والدنيوى للشعوب التى حكمتها؟ أم أن الشعوب ابتليت بهذا الحكم وامتحنت فى حياتها امتحانا عسيرا؟!

(١) راجع المصدر السابق صـ ٦٩ وما بعدها.

ثـم ماذا فعلت أختها «دولة القرامطة الإسماعيلية فى البحرين وشـرق الجزيرة والبلاد التى حكمتها بإمام معظم من الشـيعة؟ وتاريخها يحوى صورا من الفسـاد والإجرام والظلم والعبث ما يثقل ضمير أصحاب الضمائر؟ وهل نزعهم الحجر الأسود من مكانه، وأخذه إلى عاصمة الدولة أمر مقبول دينيا أو دنيويا؟

ومن المعروف أن الشـيعة الاثنا عشـرية كانوا يعيشون فى سلام، وكانوا موضع احترام من الخلافة ومن أتباعهم.. ولم يكن هناك أى سبب سياسى أو أمنى، يدعو هذا الطفل إلى الاختفاء حيا فى سـرداب، لكنه مات عام ٢٦٠هـ فى عهد المعتمد هو وأبوه الإمام الحسن ودفن بجانبه دون أن يكون هناك من الذرية من تسند له الإمامة..

ولذلك انفض كثير من أتباع الاثنى عشرية عنهم، إلى فرع آخر من فروع جعفر الصادق، هو فرع الشـيعة الإسماعيلية الذى انتعش بانقراض الفرع الموسـوى، الاثنى عشرى[1] بوفاة هذا الطفل.

وإزاء هذا اخترع كبار التابعين للاثنى عشـرية أن الطفل الإمام اختفى، وهو باق إماما لهم، حتى يعود.. الخ.. ليحتفظوا بمن بقى من أتباع الاثنى عشـرية، وليظل المذهب حيا سائدا.

وقـد كان تدبيرا محكما أثمر فعلا ثمرته، فظل الكثيرون على ولائهم للمذهب، وللإمام كما نرى الآن. برغم غرابة هذا الادعاء الذى لم يكن له مبرر إلا المصلحة الخاصة.

إذ أن الشـيعة يعتقدون أنه لابد من إمام لهم معصوم، يبلغهم الشـريعة عن الرسول.. إلخ.. ولذلـك لما مـات الطفل الإمام، توجه بعضهم إلى إمام آخر مـن الإسماعيلية والإيمان به، وكان الإسماعيلية يدعون أن لهم إماما ظاهرا أو مستورا خوفا من الحكام.. لكن له نائب ظاهر ينوب عنه؛ ويقود أتباعه؛ ويوضح لهم دعوته.. ولذلك أخذت الشيعة الإسماعيلية تقوى بالذين انفضوا عن الاثنى عشـرية، لكن ما لبث الاثنا عشـرية أن اسـتردوا قوتهم بهذا الادعاء، الذى وجد تصديقا فى الوسط الشيعى الاثنى عشرى.. واستمر المذهب على عقيدته فى الإمام المختفى.

وفكرة الاختفاء والعودة سبق أن قال بها الحبر اليهودى ابن سبأ الذى أسلم أيام عثمان رضي الله عنه عندما أعلن أن النبى ﷺ سـيرجع، وأنه ليس أقل من عيسـى، ثم أنكر أن عليا رضي الله عنه قد مات، وأنه لا يزال حيا، وسـيرجع وينتقم من خصومه... وبالرغم من أنها أفكار غريبة جداً على الإسلام، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، وأن أحدا من الناس لن يحيا ويرجع للدنيا قبل يوم القيامة.. لذلك كانت فكرة ابن سـبأ فى الرجعة غريبة كل الغرابة عن الوسـط الإسلامى حين

(١) ارجع إلى تاريخ الخضرى صـ ٢ صـ ٢٩٨.

ألقاها، ولكن يظهر أنها علقت ببعض الأذهان، ووجدت من يستغلها لمصلحته ويدعى أن هذا أو ذاك سيعود ويرجع، وينتقم من خصومه.. ويملأ الأرض عدلاً سواء كانت عودته من موت أو من غيبة عن الأنظار.

وأول من استغلها هم أتباع محمد بن الحنفية من الفرقة التى أطلق عليها «الكيسانية» نسبة إلى كيسان مولى الإمام على، وهى فرقة تزعمها المختار بن أبى عبيد الثقفى. وسمى بالكيسانى. فلما مات محمد بن الحنفية عام ٨١ هـ. عز عليهم أن يموت فادعى أنصاره أنه اختفى فى جبل رضوى، وسيعود.

كما عز على أتباع الحسن والحسين أن يؤول الأمر نهائيا إلى الأمويين، ورأوا أن ذلك سيزرع اليأس فى نفوس المتعلقين من الشيعة بذرية على من السيدة فاطمة فاخترعوا فكرة المهدى الذى سيظهر ويستولى على الحكم، لتظل نفوس الشيعة متعلقة بعودته. وقد وضعوا بعض الأحاديث النبوية التى تؤيد هذا.. وأشاعوها ليحاربوا بها بنى أمية.

لكن بنى أمية قابلوا هذه الحرب الدعائية بحرب دعائية من جنسها. يقول الأستاذ أحمد أمين[1]: «ورأينا للبيت الأموى مهديا آخر، لا يسمى المهدى، ولكنه يلقب بالسفيانى، وذاعت أخباره فى البيئات الأموية وغيرها. وكان السفيانى المنتظر، كالمهدى المنتظر، قال فى الأغانى عن مصعب: كان خالد بن يزيد بن معاوية يوصف بالعلم، ويقول الشعر. وزعموا أنه هو الذى وضع خبر السفيانى وكبره، وأراد أن يكون للناس فيه طمع، بعد أن غلبه مروان بن الحكم على الملك، وتزوج أمه إلخ.. ويقول: «ومن أظرف ما حدث أنه لما قال الشيعة بالمهدى، وقال بعض الأمويين بالسفيانى، وضع بعض الشيعة الأحاديث بأن المهدى إذا خرج سيقاتل السفيانى. إذا خرج» فسيبايع الناس المهدى بمكة بين الركن والمقام، ثم إن المهدى يقول: «أيها الناس اخرجوا لقتال عدو الله وعدوكم» ويقول: «ويظهر أن العباسيين أيضا بعد ذلك عز عليهم ألا يكون لهم (مهدى)، فوضعت الأحاديث على هذا النمط» رواها الطبرانى ورواها الحاكم وغيرهما..

وينتهى الأستاذ أحمد أمين إلى القول: «فنرى من هذا أن عقيدة المهدى فشت فى العلويين والأمويين والعباسيين، وأخذت عند كل منهم لونا خاصا»، وكان لها أسباب سياسية واجتماعية ودينية.. لكنه يرى أنها نبعت من الشيعة، وكانوا هم البادئين باختراعها، وذلك بعد خروج الخلافة من بين أيديهم وانتقالها إلى الأمويين ص ٢٤١.

---

(١) ضحى الإسلام ج ٣ صـ ٢٣٨ طبعة أولى.

وكان من الغريب أن بعض أصحاب كتب الحديث الستة المعروفين عدا البخارى ومسلم يذكرون فى كتبهم بعض هذه الأحاديث سواء عن هذا الفريق أو ذاك.

وقد ذكر الحاكم فى صحيحه أحاديث عن المهدى للشيعة، ومع ذلك نراه يذكر حديثا عن سفيانى الأمويين، المقابل للمهدى عند الشيعة.. «من ذلك ما رواه فى صحيحه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يخرج رجل يقال له السفيانى من دمشق، وعامة من يتبعه من كلب، فيقتل حتى يبقر بطون النساء، ويقتل الصبيان.. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»..

ثم ساق حديثا ثانيا فى السفيانى بلفظ الحديث الأول ومعناه، فتصحيح الحاكم لأحاديث السفيانى، هو بمثابة تصحيحه وتصحيح الترمذى لأحاديث المهدى على حد سواء، وفى الحقيقة أنها كلها غير صحيحة ولا متواترة[1].

فلم يكن عسيرا ولا صعبا ولا غريبا على الشيعة الاثنى عشرية أن يدعوا هم الآخرون حين مات الإمام الطفل، وانقطعت ذرية الأئمة عندهم، أن يدعوا أنه اختفى وغاب، وأنه المهدى وسيرجع ليملأ الأرض عدلا بعد أن تكون قد ملئت جورا وظلما وينتقم ممن ظلمهم، وسلب الحكم منهم واضطهدهم وقد وضعوا الأحاديث والروايات لرواج فكرتهم.. وحققوا الغرض الذى من أجله ادعوا هذا الادعاء، حيث ظلت الجمهرة الكبرى من الشيعة وراء هذا المذهب ووراء هذه الفكرة!

ويقول الأستاذ أحمد أمين[2] عن فكرة المهدى المنتظر هذه بعد أن سرد أخبارها، «وهكذا كانت مؤامرة شنيعة أفسدوا بها عقول الناس».. ثم يقول: «حديث المهدى هذا حديث خرافة، وقد ترتب عليه نتائج خطيرة فى حياة الناس».

ولعل من هذه النتائج أنه تسرب إلى المسلمين من أهل السنة، وجاءت بعض الأحاديث عنها فى بعض الكتب الستة غير البخارى ومسلم! وتعلق بها الكثيرون حتى من العلماء، وألفوا فى إثباتها وصحة القول بها كتبا ورسائل!! واعتبروها من ضمن عقائد أهل السنة!! مع أن نقاد الأحاديث قد ناقشوا هذه الأحاديث، وبينوا ضعفها[3].. لكنها مع ذلك شغلت

(١) نقلا عن كتاب «المهدى منتظر بعد الرسول محمد خير البشر» ص ٤ لفضيلة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس الشئون الدينية والمحاكم الشرعية فى دولة قطر. طبعة ثانية ١٩٨٠ وقد نقل هذه الأحاديث عن صحيح الحاكم (٤/ ٥٢٠) من كتاب الفتن والملاحم.

(٢) فى ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٤٣.

(٣) المرجع السابق الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود.

علماءنا تأييدا ورفضا، وسرت إلى عقول العامة عندنا، وكان لها أثر كبير فى ادعاء البعض من أهل السنة للمهدية، و«مهدى أهل السنة» غير مهدى الشيعة، إذ لا يعتقد أهل السنة أن المهدى هو الإمام الطفل الغائب حتى يعود، ولكنه مهدى سيظهر من بين الأحياء.. وهى دعوى من الشيعة أصيب بها أهل السنة، معتمدين على أحاديث نبوية موضوعة.

ومن الذين تحدثوا عن الآثار السلبية للقول بالمهدى المفكر والكاتب أحمد أمين فى كتابه ضحى الإسلام، وفى البداية أشار إلى «الجفر» الذى يؤمن الشيعة بأنه وعاء من جلد موروث فيه علم ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة، حيث أوضح أنه أدى إلى إشاعة الخرافات وتعلق المسلمين بالأوهام والاهتمام بالمستقبل أكثر من الحاضر، بالإضافة إلى ظهور أدعياء المهدية، وما ترتب على ذلك من ثورات واضطرابات وإراقة دماء وابتعاد عن صحيح الدين.

وآخر هؤلاء المدعين «الباب الفارسى» مؤسس البابية، ثم مؤسس البهائية. وقد وجد المدعوون من يناصرهم من المسلمين.

وامتد أثر الإيمان بالمهدى إلى الصوفية، حيث استغل الصوفيون أو نسبة كبيرة منهم فكرة المهدى وصاغوها صياغة جديدة، حيث أطلقوا عليه «القطب» متصرفا فى الكون، وقالوا بمملكة من الأرواح على رأسها القطب وهو نظير المهدى، وهو الذى يدبر الأمر فى كل عصر، وهو عماد السماء، ولولاه لوقعت الأرض، ويلى القطب، النجباء، الذين قال عنهم ابن عربى فى كتابه الفتوحات المكية، وهم اثنا عشر نقيبا، وهو نفس عدد الأبراج الفلكية كل نقيب عالم بخاصية برج، وبما أودع الله فى مقامه من أسرار، وجعلوا عندهم علوم الشرائع، وإبليس مكشوف عندهم. وهذا ما جعل للصوفية مملكة روحية باطنية وراء المملكة الظاهرية، مما أفسد على الناس عقائدهم وأعمالهم، وجعلهم يهيمون فى واد بعيد عن أرض الواقع.

وتعليقا على حكاية المهدى يقول الأستاذ الدكتور عبد المنعم النمر شيخ الأزهر الأسبق فى كتابه «الشيعة. المهدى.. الدروز.. تاريخ ووثائق» المنشور فى سلسلة كتاب الحرية عام ١٩٨٧ ابتداء من الصفحة ١٧٣ إن حكاية المهدى الذى سيظهر فى آخر الزمان، ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما حكاية بعيدة عن طبيعة الإسلام.. اخترعتها نفسيات خاصة، اختارت لنفسها أفكارا خاصة جعلتها تعيش وهى شاعرة بالظلم: لا لشىء إلا لأن الحكم والسلطان خرج عن دائرة نفوذها.. وهى عاجزة عن أن يكون لها الحكم والتسلط، بحكم الطبيعة وسنة الحياة، فأشقت نفسها بهذا التصور، وهذا التعلق بأمل بعيد، فقربته

إلى نفسها أو قربه علماؤها أو أصحاب المصلحة بفكرة المهدى هذا.. فما هى هذه الأرض التى امتلأت بالظلم؟ أرض المسلمين، أو الأرض كلها؟ وما هى الأرض بالتالى التى سيملؤها المهدى عدلا حين يحكم؟ هل يحكم أرض المسلمين، أم الدنيا كلها ليملأها عدلا؟ لماذا لا يعملون هم ليحققوا العدل فى أرضهم؟ تصورات داخلة كلها فى دائرة الأحلام، أحلام الذين شاءوا لأنفسهم أن يعيشوا شاعرين بالظلم والغبن لضياع الحكم، فيحلمون بالعدل وبالحكم فى أيديهم، كما يحلم الجائع برغيف الخبز.

كل هذا إنما هو وليد حالة خاصة، وشعور خاص، شاءت طائفة من المسلمين أن يعيشوا فيه، وليست له أية صلة بالإسلام السمح الرحب، الذى له قواعده وتعاليمه التى أرساها الله ورسوله.. كما أنه لا صلة له بطبيعة الحياة والعيش فيها، والعمل بها فالقاعدة، ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1] والمسلمون وحياتهم فى هذه الدنيا معلقون بأعمالهم، وبما يجيدون فيها، وأمامهم طريق الحياة طريق رحب، فيه متسع للعاملين، إن أرادوا النهوض ورفع الغبن عنهم، فأمامهم الميدان واسع للعمل، وإن أرادوا غير ذلك ابتعدوا عن الميدان خاملين، وتركوه لغيرهم، وتركوا أنفسهم أيضا للغير، يتحكم فيهم، ويشكل مصيرهم.. لن يرسل الله لهم واحدا من السماء أو الأرض يحيل الدنيا لهم لبنا وعسلا.. ويرفع عنهم الظلم، ويملأ الأرض بالعدل وهم خاملون جاهلون فما ذلك من سنته تعالى فى الحياة بل سنته أنه سبحانه «لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»..

وواهمون كل الوهم، بل غارقون فيه حتى شعر رءوسهم، أولئك الذين تصوروا أن طفلا فى سن خمس سنوات قد اختفى ليعود آخر الزمان ليحقق لهم الإنصاف الذى شعروا أنهم فقدوه، وعاشوا يحلمون أن الذى اختفى سيعود آخر الزمان ليحقق لهم هذا الإنصاف، ويملأ الأرض عدلا!! وأى ظلم هذا الذى يتصورونه واقعا بهم، وهم يأخذون حقوقهم كبقية الناس الذين يعيشون معهم، وفى أى أرض أو دولة؟ وأى ظلم وقع عليهم وواقع بهم؟

إنه ظلم تخيلوه وعلقوا أنفسهم بحباله، حين تصوروا أن الرسول ﷺ قد جعل المسلمين على مر الزمان وعلى أية أرض، ميراثا لذريته، تحكمهم وتتسلط على شئونهم فى دنياهم وآخرتهم إلى يوم القيامة!! من عجيب الأمر أن رواية من الروايات الشيعية تذكر أن الله لما أمر رسوله فى «غدير خم» أن يعلن أن عليا وصيه ويتولى الحكم من بعده ويصبح حكم المسلمين بين ذريته للأبد، تذكر الرواية أن الرسول خشى عاقبة هذا الإعلان من

(١) سورة الإسراء الآية ٧.

ثـورة الأصحـاب عليه، وتمهل، ورجـا أن يأتى هذا الإعلان من غـيره. فنزل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[1] فقام الرسـول وتشجع وأعلن أن عليا وصيه ووليه من بعده، روى الكلينى فى أصول الكافى هذه الرواية عن الإمام الباقر ص ١٧٨ – ١٧٩ من الثورة الإيرانية ص ١٤٩ – ١٥٠ وهذه الرواية التى رووها تدل من حيث لا يدرون أن تعيين علىّ وذريته حكاما على هذه الأمة أمر مخالف لطبيعة الأمور ونفوس الناس لأن الرسـول ﷺ خشـى مغبة إعلانه هذا الحكم.. فتمهل حتى نزلت الآية تأمره وتهدده.. ثم من الذى قال هذا؟ وظلم الرسـول ﷺ به، حين أسـنده إليه؟ من الذى يرضى له إسـلامه وحبه لرسـول الله أن يدعى عليه أنه أسـند حكم المسلمين بعده لأحد، ولواحد هو ابن عمه وصهره خاصة؟ ولذريته إلى يوم القيامة.

بينما وجدنا أبا بكر لم يوص بالخلافة لأحد أبنائه، ووجدنا عمر رضى الله عنهم جميعا يرفض رأى من أشـار عليه بأن يعهد إلى ابنه بعده أو يرشـحه ويقول: «كفى آل الخطاب واحد منهم يسأله الله عن أمة محمد» ويرشح غيره. ولنفرض فرضا ولو بعيدا أن الرسول ﷺ أوصى لعلىّ بالحكم بعده، فهل يعنى هذا أن يظل الحكم فى الإسـلام، وراثيا فى ذريته ومن السيدة فاطمة دون زوجاته الأخريات؟ وهل كان من مهمات الرسول ورسالته التى كلفه الله بها أن يجعل حكم المسـلمين وراثيا فى ذرية بنته فاطمة رضى الله عنها؟ حتى لطفل مثل الإمام الذى قيل إنه اختفى وعمره خمس سنوات؟

لقد سـألته فاطمة رضى الله عنها أن يعطيها شـيئا من الغنائم، تسـتريح به من عناء العمل فى البيت، فأبى ﷺ وذهب إليها وعلمها كلمات من تسبيح الله ودعائه تستعين بها على متاعبها.. أبى عليها حتى هذا الشـىء الذى أعطاه أناسـا من الصحابة، لتظل ويظل عليه الصلاة والسـلام بعيدا عما يشـتم منه رائحة محاباة.. فيعطى ذريتها حكم المسـلمين إلى الأبد؟ وماذا كان يقال عنه لو فعل ذلك، وهو ليس من مهمات الرسـالة، بل ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2].. ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[3].

أفكان للرسـول أن ينقض هذه القاعدة فى أهم أمر من أمور المسـلمين، ويكون بعد ذلك مثلا وقدوة لهم؟ أفيقول الله له «وشاورهم» فى أمور الحياة العادية التى لا ينزل فيها وحى،

(١) سورة المائدة الآية ٦٧.

(٢) سورة الشورى الآية ٣٨.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

فيستشيرهم فى الخروج للحرب، وفى موقف الجيش للحرب، وفى عقد الصلح. وفى غير ذلك ثم يأتى لأهم أمر من أمور الحياة فيحرمهم من أن يكون لهم رأى فيه؟ وخطأ كل الخطأ أن يتصور أحد أن أمر حكم المسلمين وتعيين الحاكم هو فرض من فروض الإسلام لابد للرسول أن يقوم به ويعينه مثل الصلاة والصيام والحج.

صحيح أن الحاكم هو رأس الأمة المدبر.. وقد جعل الإسلام الأمر فيه شورى بحيث يمكن للأمة إذا انحرف أن تعزله، وتولى بدله، أو تقومه كما قال أحد الصحابة لعمر رضى الله عنهم «والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا» ولم يغضب عمر منه، لأن هذا من حقه دينا، بل فرح به لأنه ينطق بروح الإسلام، أفكان يتصور مثل هذه الحرية تجاه إمام من أئمة الشيعة وهم معصومون فى نظرهم؟ فكيف يستقيم لمحب لرسول الله أن يتصور أن تعيين علىّ كان من الفروض الدينية التى قام بها الرسول، وأن عليا وكل حاكم له الحق فى أن يعين من بعده من ذريته، ولو كان طفلا ليحكم المسلمين ويقوم بشئونهم. مثل هذا الإمام الطفل الغائب الذى كان إماما بالوراثة. ويكون حاكما بالوراثة حسب رأيهم.. وهو لم يكن يعى من أموره وأمور الدنيا شيئا غير غرائز الطفولة؟

إنهم يظلمون الرسول والرسالة، ويظلمون الإسلام ومبادئه، بدعوى أنهم يحبون آل بيته، ولا عجب، فبدعوى حب على وآل البيت، صوروا الرسول ﷺ رسولا فاشلا فى تربية صحابته، حين ادعوا أن أبا بكر وعمر والصحابة جميعا نقضوا حكم الرسول ورسالته، وكذبوا وتآمروا، من أجل أن يتولوا الحكم، ويسلبوه من الإمام على.. اللهم إلا ثلاثة أو حتى عشرة من الصحابة، كانوا مع على وذكروا أسماء الثلاثة أو الأربعة.. أفتكون حصيلة تربية الرسول لأصحابه هؤلاء الأربعة.. وحسب؟! يالضيعة الرسول والرسالة إن كانت هذه هى الثمرة؟ أما غير الأربعة من الصحابة كلهم فكذابون مخاتلون، خونة منافقون وكافرون، انهالوا عليهم باللعنات حتى فى دعائهم لله فى صلواتهم!! وسموا أبا بكر وعمر صنمى قريش، وهما المرادان: بالجبت والطاغوت!

فهل بهذه الصورة القاتمة التى تصوروها يقدمون الإسلام ورسوله للعالم؟

وماذا يغرى العالم بالإسلام إذن وهذا رسوله قد فشل فشلا ذريعا فى تربية من معه من صحابته. وانقلبوا على كل تعاليمه، وارتكبوا أشنع الموبقات بمجرد وفاته، من أجل أن يحكموا؟ ونقضوا وصيته لعلى؟ كما يدعى هؤلاء[1].

---

(١) انظر واقرأ كتاب «صورتان متضادتان» للعالم الهندى الكبير السيد أبى الحسن على الندوى. يعنى صورة عقيدة أهل السنة فى الصحابة، وعقيدة الشيعة فيهم.

بل إننا لنجد من هذا القبيل صورة أخرى مفزعة، جاءت على لسان آية الله خومينى نفسه حين ألقى خطبة بمناسبة ذكرى الإمام المهدى فى ١٥ شعبان ١٤٠٠ هـ قال فيها نقلا عن الإذاعة والصحف الإيرانية: «لقد جاء الأنبياء جميعا من أجل إرساء قواعد العدالة فى العالم، ولكنهم لم ينجحوا، حتى النبى محمد خاتم الأنبياء، إلى أن قال: والشخص الذى سينجح فى ذلك ويرسى قواعد العدالة فى جميع أنحاء العالم فى جميع مراتب إنسانية الإنسان، وتقويم الانحرافات، هو «المهدى المنتظر»[1] وقد كرر «خمينى» هذا المعنى فى خطبة له أخرى فى ٩ أغسطس ١٩٨٤ بمناسبة احتفاله بمولد الإمام الرضا، ونشرت نص الخطاب نقلا عن الإذاعة والصحف الإيرانية مجلة «امباكت انترناشيونال الصادرة فى لندن فى ٢٤/ ٨/ ٨٤» وهى من مجلات الجماعة الإسلامية المودودية بباكستان نقلتها عنها مجلتهم فى لاهور «إيشيا الأسبوعية الصادرة فى ٢٣ سبتمبر ١٩٨٤» ثم علقت عليه تعليقا لاذعا تحت عنوان «هذا نفى للإسلام وتاريخه وأمر لا يحتمله حتى الأصدقاء» وذلك لأنه قال فى خطابه هذا، إن الرسول وصحابته منذ فجر الإسلام حتى اليوم لم ينجحوا فى إقامة الحكم الإسلامى، وأن عليا لم تتح له الفرصة لكشف علم الحقيقة الذى أخبره به الرسول فى أذنه، وبالتالى لم تتح للأئمة من بعده، لأن عليا ذهب ومعه علم الحقيقة.. الخ..

ونتساءل هنا: كيف يدعى الأئمة إذن أنهم يعلمون علم الحقيقة من على ﷺ كما يرددون ذلك؟ ثم أين علم القرآن إذن إذا كان علم الحقيقة قد ذهب مع على؟ ثم يقول «خمينى»: الذى لم نجده حتى الآن هو الإنصاف الإلهى. والآن وقد وهبنا الله النجاح بفضله نرى كيف تحاك المؤامرات حول الحكومة الإيرانية الإلهية «يعنى حكومته».

يريد أن يقول هنا كما صرح فى مواقف أخرى: إنه نجح فيما لم ينجح فيه الرسول ولا صحابته، ولا الأئمة، فى إقامة حكومة إلهية باسم الفكر والمذهب الشيعى، وهو ينفخ فى الشعب هذه الصورة الحماسية، وسبق أن نقلنا عنه أنه يقول: إن هذه الحكومة الإلهية – حكومته– هى أول حكومة فى التاريخ للمذهب الشيعى الاثنى عشرى وأتباعه، وأنها عازمة على إنصاف أتباع المذهب من الظلم الذى وقع عليهم على مر التاريخ من حكومات غير شيعية وغير إلهية.. وذلك ليثير فى الشعب التحمس المذهبى له والتعلق به.. غير حاسب حساب المذاهب الأخرى شيعة وسنة.. حين ترى فيه هذا الإغراق التعصبى المذهبى

(١) صـ ٢٦، ٤٥ من كتاب «نهج خمينى فى ميزان الفكر الإسلامى» لأساتذة من جامعة بغداد، طبع دار عمار بعمان الأردن طبعة أولى ١٩٨٥.

الذى لم يبال.. وهو رجل دولة أن ينقله من بطون كتبهم، ويحييه الآن ويجابه به المسلمين الآخرين وغير المسلمين.

## الولى الفقيه

برزت نظرية ولاية الفقيه وثار الجدل حولها بشكل حقيقى مع بروز الثورة الإسلامية الإيرانية ١٩٧٩، ونجاح الملالى وآيات الله بقيادة الخمينى فى الإطاحة بالشاة، كان الخمينى الذى كان منفيا فى فرنسا، لفترة بسيطة، وقبل ذلك مقيما فى النجف زهاء أكثر من عقد منذ ١٩٦٥ للتحصيل الدينى الحوزوى المعتاد، يبشر بهذه النظرية الثورية التى تعنى إشراف رجل الدين «الفقيه» بشكل مباشر على ضمان الشرعية الإسلامية فى المجتمع والدولة، لأن الخطاب الشيعى التقليدى يقوم على عدم منح الشرعية الكاملة إلا للمعصوم وهو المؤهل الوحيد لتحقيق الشرعية التى يعيش المجتمع فى كنفها دون حرج، أما دول القهر والواقع فكان الفقه الشيعى طيلة قرون وقرون يتعامل معها بالحد الأدنى من الضروريات دون منحها الاعتراف الشرعى الذى لا يكون إلا للمعصوم الغائب، وظلت الدول المتعاقبة فى إيران منذ غلبة المكون الشيعى عليها فى القرن السادس عشر، فى حالة قلق وخوف دائم من ثوران الجماهير، وكانت الوسيلة الدائمة للسيطرة هى القوة العارية، أو الاعتماد على الفقيه لمواجهة الجماهير؛ وقال الخمينى فى كتابه الشهير «الحكومة الإسلامية» الذى صدر ١٩٧٠ إن ولاية الفقيه تمثل جوهر الخطاب السياسى الشيعى.

وقد عالج الخمينى فكرة الحكومة الشرعية بصورة مفصلة ومتخصصة. ومع أنه جاء ضمن حلقات بحث فقهى، إلا أن القضايا التى طرحها تجاوزت هذا الإطار ولامست أسئلة عديدة كلامية، ثقافية وسياسية.. والحقيقة أن جذور نظرية ولاية الفقيه تعود إلى تاريخ أقدم أى منذ حكم الصفويون إيران، وقد قدم رجل الدين البارز آية الله الكركى القادم من جبل عامل فى لبنان دعمه للشاه الصفوى (طهماسب) ومنحه إجازة للحكم باسمه باعتباره الفقيه، ممثل ونائب الإمام المهدى الغائب.

وقبل ثورة الخمينى بمائة وخمسين عاما كان هناك مجال خصب فى الإطار الفقهى الشيعى أثاره الإمام النراقى فى كتابه (عوائد الأيام) حول حدود الولاية بالنسبة للفقيه.

وقد ظهرت إرهاصات النظرية فى جبل عامل بلبنان على يد محمد بن مكى الجزينى العاملى (١٤٧٢م)، الذى وسع نطاق عمل الفقهاء فى حياة المؤمنين. واستند إلى ما أسماه

«نيابة الفقهاء العامة» عن الإمام المهدى المنتظر. وتشمل القضاء والحدود وإقامة صلاة الجمعة. وصاغ الجزينى تعبير «نائب الإمام» الذى أطلق على الخمينى لدى عودته من المنفى. وبعد أربعة قرون طور الشيخ النراقى الجزينى بتوسيع صلاحيات الفقهاء. واستخدم مصطلح «ولاية الفقيه» لأول مرة. رأى النراقى أن للفقيه فى عصر الغيبة الولاية فى أمور الدين والدنيا التى كانت للنبى والأئمة إلا ما استثناه الدليل الشرعى.

ومنذ خروج النظرية وجدت معارضات فقهية، ومازالت. ولب الخلاف يقوم على حدود الولاية التى تمنح الفقيه صلاحيات المعصوم الخاصة به مثل الحكم بالناس فى دمائهم وأموالهم. وكل أمورهم العامة التى عظم الله شأنها لذلك فهى من اختصاصات المعصوم الغائب. ولكل فريق أدلة يستدل بها. سواء أنصار الولاية العامة للفقيه. أو الولاية الخاصة. أو الجزئية. وأبرز نص يتم استحضاره هو رواية عمر بن حنظلة: «قال الإمام الصادق بعد سؤال عن رجلين تنازعا، ينظر إلى من كان منكم ممن قد روى حديثنا ونظر فى حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به حكما فإنى جعلته عليكم حكما».

لكن مفتى جبل عامل السيد على الأمين المعارض لنظرية ولاية الفقيه يقول إن هذا النص لا يدل أبدا على مفهوم ولاية الفقيه كما نظر له الخمينى وأنصاره، بل هو مقتصر على الولاية الخاصة.

فى الإطار العام لدى الشيعة، لا تقوم «الشرعية الكاملة» إلا بظهور الإمام المهدى المنتظر، ولذلك لاحظ الخمينى أن ذلك سلبية تعنى عمليا استحالة إقامة الشرعية والحكومة الإسلامية وتقضى بتحول العدالة، حسب المنظور الشيعى الذى لا يقول بولاية الفقيه. إلى مجرد أمنية كما لاحظ أحد علماء الشيعة الكبار.

المفارقة أن الخمينى الذى استفاد من جهود الفقهاء الكبار السابقين وطور النظرية وذهب بها فى تطبيقات مباشرة، لم يجد تأييدا فى أوساط رجال الدين المتقدمين. وكانت قاعدته الشعبية تقوم على البرجوازية الصغيرة وبعض صغار طلبة العلم من الشبان. وبلغ الخمينى بالنظرية ذروتها مع الوصول الفعلى إلى الحكم بتحالف عريض مع أحزاب يسارية، وعلمانية، وإسلامية يسارية، لكنه أزاحهم جميعا عن المشهد وكرس حكم الولى الفقيه لنفسه، وعارضه فى ذلك فقهاء شيعة كبار فى نظريته تلك داخل إيران وخارجها، فمن داخل إيران كان آية الله شريعة مدارى، الذى عوقب بالإقامة الجبرية إلى وفاته، ومن

خارجهـا كان المرجع الكبير أبو القاسـم الخوئى فى النجـف معارضا لنظرية ولاية الفقيه العامة، ومثله تلميذه المرجع الحالى السيستانى.

والاتجاه المحافظ لدى المراجع الشـيعية هـو تأييد الولاية الخاصة للفقيه فى خصوص الأحـكام الفقهيـة الخاصة، أو الولاية على الأيتام والقصـر والأرامل، باعتبار «الحاكم ولى من لا ولى له» وفق النص الإسـلامى الفقهى الشهير. والحاكم هنا بمعنى القاضى لا بمعنى السـلطان السياسى. وكان الفقيه اللبنانى الشـيعى الشهير محمد جواد مغنية من معارضى نظريـة ولايـة الفقيه، بل حتى المرجع محمد حسـين فضل الله يعتـبر معارضا للنظرية. ويخالف حزب الله فى إيمانه بالنظرية، كما قال هو صراحة فى حوار صحفى له.

الأمر الذى يجب الانتباه له أن معارضة نظرية ولاية الفقيه العامة لا تعنى عدم المطالبة بوجود حكم «إسـلامى» شـرعى معين، كما هو مطلب كل التيارات الأصولية شيعية كانت أم سـنية، ولكنه يعنى فى الحالة الشـيعية، الخلاف حول اختصاص الفقيه «السـلطان» بتطبيق هذه المهمة دون غيره ووجوب الرجوع إليه، فالولاية للأمة على نفسها وليس للفقيه على الأمة، كما هى زبدة اعتراض العلماء والمثقفين الشيعة على نظرية ولاية الفقيه.

الأمـر الآخر، أنه منذ طبق الخمينى نظريته ونجح فى إقصاء معارضيه من رجال الدين وغيرهم، حتى خليفته المرتقب آية الله منتظرى، الذى اختلف مع حاشـية الخمينى وتم إبعاده، عارض نظرية ولاية الفقيه.

فيما يخص حزب الله، فهو جزء من الأحزاب الشيعية التى تؤمن بنظرية ولاية الفقيه ويعنى هذا الإيمان تلقى التكليف الشـرعى والسياسى من الإمام الفقيه، وهو واجب شرعى سياسـى حسـب مقتضيات النظرية، لا يجوز الاعتراض عليه، ومثل حزب الله المجلس الإسـلامى الشـيعى فى العراق، أى جماعة الحكيم، ولكن هذا لا يعنى أن كل الأحزاب الدينية الشـيعية مرتبطة بالنظرية، وإن ارتبطت بالنظرية فهذا لا يعنى بشكل آلى الارتباط بمرجعية طهران ومرشد الثورة، والمشهد الحالى إزاء نظرية ولاية الفقيه كالتالى:

– أحزاب تؤمن بدور إشـرافى للفقيه، على أسـاس نظرية ولايـة الفقيه العامة أو فى إطـار الالتزام التقليدى بالمرجعية الدينية، لكنها لا ترجع إلى آية الله خامنئى، ومن بينها منظمة العمل الإسـلامى، وحزب الفضيلـة، والتيار الصدرى، وجمعية العمل الإسـلامى فى البحرين.

– أحزاب تلتزم بالإطار الدينى لكن من دون دور خاص للفقهاء. ويدخل فى هذا الصنف حزب الدعوة، وجمعية الوفاق الوطنى فى البحرين.

ومن التحولات التى طرأت على محيط العمل السياسى لهذه الأحزاب فى دولها الوطنية العمل على تهذيب وتطوير وتشذيب النظرية أو تطبيقاتها. ومن أمثلة ذلك حالة المجلس الإسلامى فى العراق الذى أزاح من اسمه كلمة «الثورة الإسلامية» ومثله حزب الله الذى أزاح من وصفه كلمة الثورة الإسلامية بعد اتفاق الطائف (١٩٨٩)، ولكن هذا لا يعنى سقوط الغاية الأساسية فى إقامة الشرعية الإمامية التى يشرف عليها الولى الفقيه، بل يعنى أخذ معطيات الواقع فى الاعتبار، فالمتحول هو التكتيك وليس الاستراتيجيات، تماما كما أن الإخوان المسلمين، فى الإطار السنى، لم يتخلوا عن الهدف الأكبر فى إقامة الشرعية الإسلامية من خلال دولة الخلافة، ولكن يختلفون عن غيرهم من الأحزاب الأصولية السنية فى التدرج والتكتيك.

نظرية ولاية الفقيه نقلت الإمكان الشرعى الشيعى من حالة «الأمنية» بالعدالة، وكونهم صوت اعتراض دائم إلى موقع الحكم بدولة وسلاح وصواريخ وأنماط اجتماعية وصيغ حياة، إنها تشبه تفجير الذرة فى تاريخ الأفكار.

## مراجع التقليد

يعتقد الشيعة الإمامية الاثنى عشرية بأن رجوع الشيعة فى أحكام دينهم وأمور حياتهم العامة لا بد أن يكون للنبى محمد ﷺ، ومن بعده للإمام المعصوم المعين من قبل النبى، وهم الأئمة الاثنى عشر، ابتداء من الإمام على (عليه السلام) وانتهاء بالإمام المهدى، وهو ما يطلق عليه بعصر الظهور. وبعد غياب الإمام المهدى (حسبما تعتقد به الشيعة الاثنى عشرية) كان اتصال الشيعة بالإمام عبر وكلائه أو سفرائه الأربعة وهم: عثمان بن سعيد العمرى ومحمد بن عثمان بن سعيد العمرى الذى توفى ٣٠٥ هـ وأبو القاسم الحسين بن روح النوبختى وتوفى ٣٢٦ هـ وأبو الحسن على بن محمد السمرى الذى توفى ٣٢٩ هـ. وسميت هذه الفترة الزمنية التى تولى فيها السفراء الأربعة السفارة والنيابة عن الإمام المهدى بالغيبة الصغرى، وكانت مدتها ٦٩ سنة.

مع الغيبة الكبرى للإمام المهدى فى مدينة سامراء عام ٣٢٩ هجرية، فإن مراجع التقليد هم الوكلاء الذين اختارهم الإمام ليكونوا صلة الوصل بينه وبين الطائفة الشيعية،

ووفـق حديـث الإمام المهـدى الذى يحدد فيه الشـروط التى يجـب أن تتوفر فى المرجع الدينـى وهو «من كان من الفقهاء صائنا لنفسـه، حافظا لدينه، مخالفا لهواه، مطيعا لأمر مـولاه، فعلى العـوام أن يقلدوه». «والمرجع» هو الفقيه المجتهد المسـؤول عن بيان الحكم الشرعى الذى يحتاج المؤمنون معرفته فى عباداتهم ومعاملاتهم. وقد أكد الفقه الإمامى هذه الحقيقـة، حيـث يبدأ أى كتاب فقهى بتلك العبارات: يجـب على كل مكلف غير بالغ مرتبة الاجتهاد فى غير الضروريات من عباداته ومعاملاته، ولو فى المستحبات والمباحات أن يكون مقلدا أو محتاطا، والتقليد هو العمل مسـتندا إلى فتوى فقيه معين «مشـيرا إلى أن المرجع الذى يتم تقليده، يجب أن يكون عالما مجتهدا عادلا ورعا فى دين الله، غير مكب على الدنيا ولا حريصا عليها وعلى تحصيلها جاها ومالا».

والمرجعية الدينية عند الشـيعة الإمامية، كيان فقهى كبير يحتل فى الحياة السياسـية والدينية مساحة واسعة جدا يرتبط بها الشيعة بأوثق العلاقات وأمتنها، وتكتسب تعليمات المرجعية بالنسـبة للفرد الشـيعى صفة الأمر والحكم الشـرعى الملزم دينيا، الذى لا يجوز التخلف عنه ومخالفته.

كمـا أن المرجعيـة لا تورث لابـن أو لأخ أو لابن عم، وللشـيعة طريقتهم الخاصة فى انتخاب المرجع الدينى الذى يتصدى لشئون التقليد، وهذا لا يتم عن طريق ترشيح المرجع لنفسـه والفوز عبر صناديق الاقتراع. لانتخاب المرجع لدى الشيعة اسلوب مفتوح للجميع، والعملية تتم عندما يرشح العلماء رجل دين مجتهدا ومرجعا ليتصدى للمرجعية استنادا إلى عدد مقلديه. كما أن المكانة التى تحتلها المرجعية، جعلها حقيقة كبيرة فرضت نفسها على الواقع السياسى بكلّ قوّة، وراحت الحكومات تتعامل معها بحسابات دقيقة، وقد تحاشت السـلطات قبل الثورة أن تصطدم معها قدر الإمـكان، خوفا من تعرضها لثورة جماهيرية، رغم أن السـلطات كانت تعمل على إضعافها وتقليل مكانتها السياسية. فالحكومات تنظر إلى المرجعية على أنها سلطة ذات نفوذ على الشيعة، بل إن سلطة الحكومة قد تتعطل إذا ما تعارضت مع موقف المرجعية. والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة.

أمـا تمويل المرجعية فيتـم عن طريق الزكاة والخمس، أى أن يدفع كل شـيعى خمس أرباحه للمرجعية، وللمرجع الحق فى التصرف بهذه الأموال حسـب احتياجات الطائفة، مثل بناء المسـاجد والمعاهد الدينية والمكتبات وتعميرها، وكذلك بناء المستشـفيات والمراكز

الصحية، وصرف الرواتب الشهرية لأساتذة الحوزة العلمية وطلبتها والانفاق على الفقراء وسد احتياجاتهم. ولا نستطيع معرفة الرقم الأكيد لدخل المرجعية، وهذا موضوع صعب للغاية، وأبناء الطائفة الشيعية لا ينظرون إلى قومية المرجع الدينى الأعلى، سواء كان عراقيا أم هنديا أم إيرانيا، بل يهتمون بعلمه وفقهه.

## المرجعية الشيعية

ينصرف لفظ الشيعة الآن إلى أكبر فرقهم المتبقية، بعدما تلاشت تماما فرق أخرى فى فترات تاريخية مختلفة، وهذه الفرقة أو الطائفة هى الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، أو الجعفرية نسبة إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق، والذين تبلور مذهبهم فقهيا فى أوائل العصر العباسى ومن خلال نشاطه العلمى الواسع فى الكوفة حيث كان أبو حنيفة النعمان إمام الحنفية من تلاميذه.

وكان أهل بلاد الشام حتى منتصف القرن العشرين يسمونهم المتاولة – أى الموالين أو المتولين لأئمة أهل البيت – ومن خصائصهم أنهم يقولون بوجود اثنى عشر إماما معصوما ومنصوصا على كل واحد منهم بالإمامة من سابقه. وهؤلاء الأئمة يبدأون بعلى بن أبى طالب وينتهون بمحمد بن الحسن العسكرى، المهدى المنتظر، الذى ولد فى أواسط القرن الثالث الهجرى وغاب ومازال حيا وسيخرج ليملأ الدنيا عدلا وقسطا، بحسب الاعتقاد. ومرجعهم أو مراجعهم المجتهدون هم نواب هذا الإمام المنتظر ومختلفون على سعة مساحة هذه النيابة وضيقها التى يصل بها بعضهم إلى الشمولية أى ولاية الفقيه/ العامة أو المطلقة ويحصرها أكثرهم فى الأمور الحسبية – الولاية على القاصر، طلاق المرأة الغائب عنها زوجها، وراثة من لا وارث له ألخ. والشيعة الإمامية الاثنا عشرية البالغ عددهم فى العالم مئتى مليون منتشرون فى أصقاع عدة، من تايلاند وبورما وشبه القارة الهندية إلى شرق إفريقيا مرورا بالبلاد العربية وأكثر الدول الإسلامية. وتربط بينهم منظومة عقائدية محددة، ومختلف بين علمائهم على بعض تفاصيلها، إلى مجموعة من الذكريات المكونة وأهمها استشهاد الإمام الحسين فى كربلاء عام ٦٠ للهجرة. كما يلتزمون بفقه علمائهم المؤسس على الكتاب والسنة فى رواية الأئمة. وهذا الفقه يلزمهم بالولاء والمعاملة الصحيحة مع إخوانهم المسلمين من سائر المذاهب ويلزمهم كما يلتزم به المسلمون على أساس التوحيد الإبراهيمى بالتعامل الشرعى الودود مع أهل الأديان السماوية والمسيحية منهما بصورة خاصة ومميزة.

هذا كله على نسبة من الاختلاف العلمى، كما بين أى مذهب إسلامى وآخر، وإن كانت هذه النسبة من الاختلاف بين الاثنى عشرية والمذاهب الأربعة والزيدية والإسماعيلية تتسع هنا فى المجال العقدى أو هناك فى المجال الفقهى. من عقيدة الإمامة والعصمة مثلا إلى عدم الأخذ بالقياس والرأى فقهيا، كما هو عند الحنابلة مثلا، وفى واقع حياتهم وسلوكهم وعباداتهم ومعاملاتهم والأحكام الفقهية العائدة لها، يجتمعون فى ظل مرجعيتهم الدينية، التى كانت مدينة النجف فى العراق. ومنذ منتصف القرن الخامس الهجرى، أى منذ بداية الحكم السلجوقى للعراق، مكان الحوزة العلمية والمرجعية الشيعية الأولى وشبه الحصرية، بعدما اضطر كبير علمائهم جعفر بن الحسن الطوسى (ت٤٦٠ هـ) إلى مغادرة بغداد عندما وصلها السلاجقة بقيادة طغرلبك وأسقطوا الدولة البويهية... هذا مع وجود مراكز وفروع كانت ولا تزال تغيب وتحضر تبعا للظروف (كربلاء – الحلة – الهند – خراسان – أصفهان وجنوب لبنان/ جبل عامل) إلى «قم» التى أعيد تأسيسها فى عشرينات القرن العشرين على يد الشيخ عبدالكريم الحائرى المجتهد وخريج النجف.

وعلا شأن «قم» كجامعة دينية (حوزة) قبل الثورة (١٩٧٩) ولكن هذا الشأن تعاظم بعد انتصار الثورة فى إيران وفى ظل الدولة الإيرانية الإسلامية الجديدة متزامنا مع نجاح النظام العراقى السابق، فى تشتيت الحوزة النجفية وتحجيم دورها من دون أن يستطيع إلغاءها تماما، بفضل صمود المرجعية فيها مع عدد محدود من العلماء والطلاب الذين عانوا مرارات الحصار والتجويع والسجن والتعذيب والقتل. ومنذ أواسط تسعينيات القرن الماضى أصبح السيد على السيستانى هو مرجعها الأول بعد وفاة السيد أبو القاسم الخوئى، مع عدد من المراجع وترجع أكثرية الشيعة إلى السيد السيستانى حتى شيعة إيران. ما يؤكد أن المرجعية لدى الشيعة مازالت تقوم على شروطها التاريخية (الكلاسيكية المتجددة) وأن السلطة أو السياسة لم تؤثر تأثيرا عميقا فى هذا المجال. وهذا يجرنا إلى الكلام عن الشروط الدينية العلمية لهذه المرجعية وكيفية التحقق من توافرها فى المرشح للمرجعية أو المتصدى لها.

وفى البداية لا يشترط فى المرجع أن يكون عائدا فى نسبه إلى أى فرع من الهاشميين أو أهل البيت. أى لا يشترط أن يكون من السادة أى الأشراف الذين يعتمرون العمة السوداء منذ أوائل العصر العباسى، وإن كان بعضهم بقى حتى الآن، وفى حدود ضيقة، يعتمر العمة الخضراء أو يضع لفافة خضراء على غطاء رأسه (الطربوش). علما أن الفقة الشيعى

والإسلامى عموما، واستنادا إلى عدد من المرويات، يؤكد استحباب العمة البيضاء، التى يعتمرها رجال الدين الشيعة من غير السادة، وهذا لا علاقة له بالمرجعية، أى أنه لا يدخل النسب أو العمة السوداء فى شروط المرجعية، ويمكن أن يكون المرجع من السادة الهاشميين ومن غيرهم بشرط الإسلام والبلوغ والعقل والذكورة وطهارة المولد كشروط طبيعية، يضاف إليها الشرط العلمى وهو أن يكون مجتهدا أى قادرا على استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من مصادرها (الكتاب والسنة وغيرهما) بما يعنى ذلك من ضرورة إتقان العلوم الضرورية لفهم النص والدليل، من نحو وصرف وبلاغة ومنطق وتاريخ ودراية ورواية وعلم رجال وهيئة (فلك) إلخ. وتأمينا لأقل احتمالات الخطأ فى تعيين الحكم الشرعى للواقعة، يتفق علماء الشيعة أو أكثريتهم الساحقة على أن يكون المرجع المجتهد الذى يقلده ويعود اليه غير المجتهدين فى الأحكام، هو أعلم المجتهدين، أما من يعين أن هذا مجتهد أعلم فالمعوّل فيه على الخبرة الشخصية لكل عالم من العلماء، أى معرفة العالم بالعالم علميا، أو البينة بمعناها الشرعى والعلمى، أى أن يشهد اثنان من العلماء الموثوقين فى علمهم ودينهم، بأن فلانا هو المجتهد الأعلم، ويجب أو يجوز الرجوع إليه فيرجع إليه من يطمئن إلى شهادتهما فيه، ويكتفى البعض بأن تكون الأعلمية شائعة بين المعنيين بالمرجعية مع الاطمئنان إلى عدم وجود عصبية أو محاباة حتى يصح التقليد.

هذا السياق هو الذى يسمح أو يقتضى تعدد المراجع، على أساس أن المرجع هو الذى يختاره المكلف ليرجع اليه بمحض إرادته، فلا يمنع ذلك أن يختار مكلف آخر مرجعاً آخر يرى أن الشروط متحققة فيه أكثر من الأول. والشرط الثانى للمرجعية هو العدالة، أى الأهلية الراسخة بالخبرة والتجربة والمعرفة والسلوك الاختيارى على اتباع العدل فى نفسه وأهله ورهطه والناس أجمعين، وفى كل حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله، أى أنه ذو ملكة مكتسبة تمنعه من ارتكاب الكبائر أو الإصرار على الصغائر مع التواضع والزهد والعفة. والمرجع يتواصل مع مقلديه (أتباعه بالمعنى الفقهى) فى الحوزات العلمية مباشرة، أو بقليل من الوسائط، وخارجها يتواصل من خلال وكلاء موكلين خطيا من جانبه، وهم عادة من زملائه أو تلامذته الموثوقين علميا وخلقيا، وبعد انتشار الطباعة، أصبح المرجع يتواصل من خلال كتاب الأحكام الذى يسمى «الرسالة العلمية» ويتضمن فتاوى المرجع وردوده على الاستفتاءات التى ترد إليه من سائر الأقطار فى وقائع محددة...

وتستفيد المرجعية حاليا من وسائل الاتصال الحديثة، من الهاتف حتى الإنترنت. وأهم الأدوار التى تكرس مرجعية المرجع استمراره فى التدريس اليومى للطلاب فى المراحل العليا (درس الخارج أو الأبحاث المعمقة والممهدة للاجتهاد). إذا فالمرجع فى المحصلة هو تلميذ عدد من المجتهدين وأستاذ عدد من المجتهدين، ومن دون ذلك يبقى اجتهاده أو مرجعيته موضع شك أو رفض أو إدانة، ولا تنفع معها دعاية إعلامية منظمة أو أى أسلوب استقطاب آخر (مالى مثلاً أو سياسى)... هذا إلى إقامته صلاة الجماعة مع توفر الظروف، وإشرافه عبر فريق عمل متخصص، على المدارس الدينية القريبة والبعيدة مع تصديه لكل المشكلات الشرعية فى مختلف الأبواب والأقطار، ومع هذا كله يرعى المرجع عبر مؤسساته ومعاونيه ووكلائه الشئون الثقافية والعلمية والاجتماعية ويتحول إلى ملاذ فى الظروف الصعبة للجميع.

وفى السنوات الأخيرة، أى منذ أكثر من عشر سنوات تقريبا، أبدى المرجع السيستانى اهتماما مميزا وواسعا بالمؤسسات الثقافية والدعائية ومراكز الأبحاث والتحقيق والطباعة وإعداد البرامج للتعليم الدينى، ونشر معاونوه ووكلاؤه هذه المؤسسات فى عشرات الأقطار الإسلامية والعربية والغربية، إضافة إلى المؤسسات الخيرية المتعددة الاهتمامات.

والحوزات الدينية لدى الشيعة قامت وتقوم على الاستقلالية المالية التامة عن الدول، وتكاد مصادرها المالية أن تكون محصورة فى المجال الشعبى أو الأهلى، من خلال الالتزام الطوعى بالتبرعات والهبات، وريوع الأوقاف على الحوزات، والزكاة والأخماس التى يوجبها الفقه الشيعى فى فاضل المؤونة من أرباح السنة لدى أى مكلف بالغ، وترسل الأموال إلى المرجع من طريق وكلائه فى الأمصار أو تقدم اليه مباشرة، ويتسلم من يقدمها إيصالات موقعة، وتعطى الأولوية فى الصرف والنفقة لبناء المدارس ورواتب الطلاب المحتاجين فى شكل يتناسب مع احتياجاتهم وجديتهم فى الدراسة وانضباطهم المسلكى، وكذلك يصرف قسم من المال على التبليغ الدينى فى المدن والأحياء والقرى فى أوطان المبلغين وفى المهاجر. وللفقراء والمحتاجين من الناس العاديين حصتهم التى تصلهم من طريق الوكلاء، إضافة إلى المشاريع العلمية والعمرانية التى تعود على الفقراء بالنفع. وبناء المؤسسات الصحية، وغير ذلك. وتتسع قدرات المرجع المالية تبعا لاتساع مساحة مقلديه، ومن هنا يأتى تعبير المرجع الأعلى، أى الأكثر انتشارا، وإلا ففى الواقع يعتبر كل مرجع هو المرجع الأعلى لدى من يقلدونه[1].

(١) هانى فحص جريدة الحياة ١٤ يناير ٢٠٠٥.

والمجتهد لابد أن يعلن عن اقتناعه بصلاحيته لأن يكون مرجعا ويصرح لمن يسأله بأنه هو الذى يصلح للتقليد، والمرجعية لا تورث ولا تمنح من أحد لأحد، ولا يفيد فيها إعلام ولا دعاية ولا عصبية سياسية أو اجتماعية أو قومية أو عائلية، جل ما فى الأمر أن المرجع لا بد من أن يكون متقنا للغة العربية اتقانا علميا عميقا وشاملا يمكنه من فهم النص فهما صحيحا، من دون أن يكون بالضرورة متمكنا من التحدث بها بطلاقة، أو من دون لكنة إذا لم يكن عربيا، لأن ذلك يتأتى عادة من الاختلاط اليومى بالناس، وهذا لا يتوافر للذين ينكبون على الدراسة فى أوائل سنوات عمرهم وحتى عمر متقدم، ومن هنا، ولصعوبة الوصول، قلّ فى تاريخ الشيعة الحديثة ونتيجة لاتساع حقول المعرفة وتنوعها، أن يصبح المرجع مرجعا فى سن مبكرة إلا فى حالات نادرة (حالة السيد محمد باقر الصدر مثلا) هذا وأكثر فقهاء الشيعة يقولون بوجوب أن يكون الذى يقلده المكلف ابتداء، أى يتخذه مرجعا من دون أن يكون مسبوقا بتقليد أحد غيره قبل البلوغ أو لإهماله فى سن البلوغ لذلك... يقولون بوجوب أن يكون هذا المرجع حيا ويفصلون فى هذه المسألة بين من يجيز تقليد الميت وهم نادرون، ومن لا يجيز مطلقا، ومن يجيز فى حدود المسائل التى تعلمها الشخص من المرجع الميت وعمل بها، دون ما لم يتعلمه ويعمل به والذى يجب فيه الرجوع إلى أعلم العلماء من الأحياء، وهذا لا بد فيه كذلك من أن يكون مطابقا لفتوى الأعلم من هؤلاء الأحياء (أى البقاء المشروط على تقليد الميت جزئيا).

ومن مراجع الشيعة خلال القرن العشرين من خريجى حوزة النجف إضافة إلى الأحياء الآن: السيد على السيستانى (إيرانى) والسيد محمد سعيد الحكيم (عراقى) والشيخ بشير النجفى (باكستانى) والشيخ إسحاق الفياضى (أفغانى) والسيد محمد سعيد الحبوبى (عراقى) والسيد محسن الأمين (لبنانى) والسيد حسين الحمامى (عراقى) والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (عراقى) والشيخ محمد حسن المظفر والشيخ محمد حسين المظفر (عراقيان) والشيخ محمد حسين الأصفهانى (إيرانى) والشيخ محمد حسين النائينى (إيرانى) والميرزا محمد تقى الشيرازى (إيرانى) والشيخ مرتضى ياسين (عراقى) والشيخ محمد طاهر الراضى (عراقى) والشيخ عبد الحسين الحلى (عراقى) والسيد أبو الحسن الأصفهانى (إيرانى) والسيد أبو القاسم الخوئى (إيرانى) والسيد محمود الشاهرودى (إيرانى) والسيد محسن الحكيم (عراقى) والسيد محمد باقر الصدر (عراقى).

## نهاية ازدواجية السلطة

كانت السلطتان الدينية والدنيوية لدى عديد من الأمم تعودان إلى مصدر واحد، ففى مصر كان فرعون هو الإله، وفى العراق كان جلجامش سيد البلاد، ولدى بنى إسرائيل كان الأنبياء هم القادة والملوك مثل داوود وسليمان، وفى العالم العربى الإسلامى كان الخلفاء يتولون السلطتين، وقبل الإسلام كانت سدانة الكعبة وسقاية الحجيج وقفا على قريش سادة أم القرى.

أما إيران فالأمر كان يختلف فيها، ففى انبثاق المدنية كانت المعابد وعلى رأسها الكهان هى مركز القيادتين الروحية والزمنية، فالمعابد كانت مراكز لتجميع الغلال وتوزيعها على الناس وكان منها وعلى أيدى الكهان تدار شئون الحكم ويعالج المرضى ويبت فى أمور هامة أخرى. ولكن التصادم مع الجيران أخذ يزداد ويتوسع مع مر الأيام، وبالتالى بدأ الاهتمام بآلة الحرب وهذا التطور قاد بدوره إلى ظهور أبطال عظم شأنهم، وباتوا ينافسون الكهان فى الزعامة. وسرعان ما أدى هذا الأمر إلى مشاركتهم الكهان فى تسيير دفة الحكم والمحافظة على الأمن والنظام، ولم يلبث الفريقان أن توصلا إلى اتفاق مبدئى بينهما وهو أن يتولى الكهان القيام بالشعائر الدينية. ويعنى العسكريون بشئون الحرب والسلم، ومع مرور الأيام غدت صناعة الحكم من اختصاص قبيلة معينة ورعاية التقاليد الدينية منوطة بقبيلة أخرى.

وكان آخر تطور حل بالمجتمع الإيرانى قبل الإسلام انقسامه إلى أربع طبقات وهى النبلاء أهل الحكم وقيادة الجيش، وعلماء الدين القائمون على حراسة دين زرداشت، وطبقة الكتبة والموظفين. وتأتى فى الأسفل طبقة الصناع والزراع والحرفيين وهى الرابعة وما كان يجوز لأى من الطبقات الدنيا أن ترتفع إلى طبقة أعلى منها.

وكان هذا التمييز قاسيا وينطوى على كثير من الحيف والظلم ويدفع أبناء الطبقة الرابعة إلى الانتفاضة والثورة.

ومثال ذلك ما حصل فى عهد الملك قباد الساسانى حيث قام المدعو «مزدك» بالدعوة إلى ما يشبه الاشتراكية وعمت البلاد فتنة كبرى مما حدا بطبقتى النبلاء وعلماء الدين إلى عزل «الكسرى قباد» الذى أبدى تجاوبا مع الثوار الاشتراكيين ونصبوا ابنه «خسرو أنوشيروان» ملكا على إيران فأقدم أنوشيروان على قطع دابر المزدكيين دون رحمة أو هوادة وتعقبهم فى كل مكان وقضى عليهم قضاء مبرما.

وكان العالم الدينى الزرادشتى يدعى «مؤبد» وكانوا يختارون لهم رئيسا يدعى «مؤبد مؤبدان» أو «قوبدان مؤبد». وكانت هذه الطبقة على الدوام تتمتع بنفوذ عظيم يربو أحيانا على نفوذ الأكاسرة والنبلاء. فظلت هذه الازدواجية فى السلطة قائمة إلى أن قام الإسلام.

وأقبل الإيرانيون على الإسلام بإخلاص منقطع النظير وكانوا قد ضاقوا ذرعا بالتفرقة الاجتماعية التى كانوا يعيشونها. وكثير منهم اعتنق الإسلام قبل أن يدق الغزاة العرب المسلمون أبواب ديارهم.

وفى عهد الخلافة العربية لم تكن الحال فى إيران تختلف كثيرا عنْ سائر الأقطار الإسلامية. فمعظم الإيرانيين كانوا على مذهب أهل السنة وقد برز بينهم فقهاء عظام بينهم عدد كبير من أصحاب الصحاح ومنهم الطبرى صاحب التفسير المعروف وحجة الإسلام أبو حامد الغزالى وأبو حنيفة النعمان وأحمد بن حنبل وكوكبة من عباقرة الفقه والحديث والتفسير والكلام.

ولكن الأمر اختلف حين آلت الخلافة إلى آل عثمان وترتب على ذلك وصول الصفويين إلى قمة السلطة فى إيران. وإرغام الإيرانيين على التشيع والاقتناع بأن آل البيت هم الأحق بخلافة الرسول المصطفى وولاية أمر المسلمين وأن علماء الشيعة الإمامية ينوبون عن الإمام الحق فى غيابه فى قيادة المؤمنين. وعلى هؤلاء ألا يدفعوا ما عليهم من التزامات مالية إلا لأولئك العلماء فحدث من جراء ذلك ازدواجية فى السلطة فى إيران. ازدواجية جديدة تختلف عما كان سائدا فيها قبل الإسلام. فالحكام كانوا يفرضون الضرائب على الناس ويطلبون منهم الانخراط فى سلك الجندية. والعلماء كانوا يرون الحكام ظلمة يغتصبون ما ليس من حقهم وعلى المؤمنين أن يتملصوا بكل وسيلة ممكنة من خدمة أولئك الحكام ودفع المال لهم، وأن يدعموا بكل ما أوتوا من قوة ماليا ومعنويا سلطة العلماء الروحية لا سيما مراجع التقليد منهم الذين يرجع الناس إليهم فى معرفة ما هم فى حاجة إليه من أحكام فروع الدين. فأصبح لهذه السلطة الروحية شأن عظيم فى المجتمع الإيرانى. تتمتع بنفوذ واسع وميزانية ضخمة وجيش عرمرم من الدعاة وطلاب العلوم الدينية، وكانت المنافسة بين السلطتين الدينية والدنيوية تشتد أو تخف وطأتها حسب الظروف واختلاف طبائع القياديين فى الجانبين. ومن أشهر وقائع الصدام بين السلطتين ما وقع فى عهد الملك القاجارى «ناصر الدين شاه».

وتفصيل الحادث أن هذا الملك اقترض مالا من الإنجليز وفى مقابل ذلك منح امتياز حصر التبغ فى إيران لشركة انجليزية بشروط مجحفة. فما كان من المرجع الكبير السيد محمد حسن الشيرازى الذى كان يسكن مدينة «سامراء» فى العراق إلا أن أصدر فتوى بتحريم التدخين. فامتنع الناس فى طول إيران وعرضها عن التدخين فأسقط فى يد الشاه ناصر الدين ولم يجد بدأ من إلغاء الامتياز وتحمل ضررا ماليا كبيرا. ووقع هذا الحادث الذى كان له دوى عالمى هائل فى أواسط النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى وكانت مواجهة علنية بين السلطتين انتهت بصورة حاسمة لصالح نفوذ السلطة الروحية وكان ذلك إيذانا برجحان كفة السلطة الدينية على السلطة الزمنية. ودب الضعف فى كيان دولة آل قاجار إلى أن دالت بانتفاضة شعبية عارمة ساهم علماء الدين فى قيادتها وأضحى الحكم فى إيران دستوريا مع إبقاء رمزى على الملك القاجارى مظهر الدين شاه، نجل ناصر الدين شاه. وكان ذلك فى أوائل القرن العشرين. وتم عزل آخر ملوك القاجار «أحمد شاه» الذى كان شابا يافعا بعد الحرب العظمى الأولى بفترة قصيرة على يد الجنرال رضا خان وبدعم من علماء الدين.

ولكن صداما كبيرا آخر حصل بين السلطتين فى أوائل العقد الرابع من هذا القرن حين قرر رضا خان، الذى كان قد أمسى «رضا شاه بهلوى» أن يمشى على خطى مصطفى كمال أتاتورك، فى تحديث إيران حسب الأسلوب الغربى من توحيد الملبس وارتداء القبعة والزى الأوروبى وسفور السيدات والتجنيد العام وكل ذلك بالإكراه، فثار العلماء فى وجهه وتجمعوا فى أكبر مساجد مدينة «مشهد» حاضرة خراسان وصعد خطيبهم المنبر وهاجم بصراحة إجراءات الشاه المناهضة للدين فتصدت لهم قوات الشاه وأحاطت بالمسجد وأمطرت المتجمهرين فيه وابلا من الرصاص وقتلت وجرحت الكثيرين منهم وقضت على الحركة بمنتهى العنف. واشتدت بعد ذلك مضايقات المسئولين للعلماء والخطباء وطلاب العلوم الدينية وأذاقوهم ضروب الهوان، إلى أن قامت الحرب العظمى الثانية واحتل الحلفاء إيران، وتنحى رضا شاه عن الملك لصالح ابنه محمد رضا شاه.

وأفسح سقوط رضا شاه المجال أمام الزعامة الروحية لتسترد قوتها وتوسع نشاطها وتنشر ألويتها فى أنحاء إيران على مسمع ومرأى من قوات الحلفاء. وكان هؤلاء لا يمانعون فى ذلك لأنهم كانوا يرون فيه تصديا لقوة الشيوعيين المتنامية التى تسندها موسكو.

وتكونت فى تلك الفترة نواة تكتلات سياسية دينية واستخدمت بعضها مثل «فدائيان إسلام» العنف فى تصفية من كانت تحسبهم أعداء للإسلام، وكانت تجد تشجيعا من بعض العلماء مثل آية الله السيد أبو القاسم الكاشانى، وقصة مناصرة آية الله الكاشانى للدكتور محمد مصدق زعيم الجبهة الوطنية فى قضية تأميم البترول الإيرانى ومنازلة الإنجليز معروفة.

وانفجرت المواجهة الكبرى بين السلطتين الروحية والسياسية أواخر صيف ١٩٦٣ يوم خرجت الجماهير فى طهران وقم ومشهد بإشارة من الإمام الخمينى وعدد من العلماء المؤيدين له. خرجت لتندد بالقوانين المدنية التى سنها الشاه محمد رضا خلافا للشريعة الإسلامية، فسحقتها القوات الحكومية بفظاظة وراح ضحيتها قتلى وجرحى كثيرون، ونفى الإمام الخمينى إلى تركيا وبعدها بعام وبضعة أشهر سمح له بالسفر إلى العراق والاستقرار فى النجف.

وقد أنهت ثورة عام ١٩٧٩ بقيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية تحت قيادة الإمام الخمينى ازدواجية السلطة فى إيران واتحدت الزعامتان الروحية والسياسية فى شخصية الإمام الخمينى وصار العلماء الحكام يؤمون الناس لصلاة الجمعة والعيدين كما جرت العادة أيام الخلفاء الراشدين[1].

## أسطورة النوروز

يميل الإيرانيون عادة إلى المحافظة على الموروث مهما كان، بل إنهم نجحوا فى مصالحة الموروث مع العقيدة الدينية التى دخلوا فيها وهى العقيدة الإسلامية، فجعلوا للنوروز دعاء وصلاة، وأدخلوا آيات القرآن الكريم فى لحظة بدء العام الجديد وهو النوروز، حتى ظن الكثير من الإيرانيين أن الأعياد فى الإسلام ثلاثة. عيد الفطر وعيد الأضحى وعيد النوروز.

وبعد انتصار الثورة الإسلامية وجدت هذه الثورة نفسها أمام عبء تاريخى واجتماعى وثقافى معقد ومتشابك، وبما أن مشروع الثورة قام على تصورات ورؤى متباينة، فإن بروز ذلك على مختلف المستويات أمر طبيعى ومنتظر، لهذا اختلف أبناء الثورة حول كيفية التعامل مع المعطيات الثقافية والاجتماعية والدينية العامية والموروثة منذ مئات السنين. فى هذا الإطار بالذات يمكن فهم عيد النوروز الإيرانى وما يستنبطه من اعتقادات وعادات ورغبات جعلت الحكومة الإيرانية تعتبر الأيام الأربعة «من ١٢ إلى ٢٤ مارس» عطلة رسمية خاصة

(١) جعفر راند جريدة الحياة ٩ يناير ١٩٩٤.

لعيد النوروز، كما جعلت يوم ٢ أبريل الذى يوافق ٣١ من فروردين الإيرانى عطلة رسمية لمناسبة يوم الطبيعة، الذى يصفه المواطن الإيرانى كل على طريقته بالنوروز، لا تفرقهم فى ذلك الديانة أو القومية أو المذهب، إذ يحتفل الأكراد والترك والفرس والعرب والبلوش. كما يحتفل الشيعة والسنة فى الوقت الذى لا يتخلف عنه المسيحيون واليهود والزرادشتيون.

وحاول الإيرانيون وضع مراسم خاصة لهذا العيد تتعلق بالملبس والمأكل، إضافة إلى العادات والتقاليد التى ترافق النوروز منذ الأسبوع الأخير من فصل الشتاء وحتى الثانى من أبريل مرورا بدخول الطبيعة فصل الربيع الذى يبدأ فى العشرين أو الحادى والعشرين من مارس، ومما يلفت الاهتمام أن يتزامن النوروز مع بداية الأبراج الفلكية حيث يبدأ برج الحمل فى الحادى والعشرين من مارس من كل عام.

وحاولت المعارضة الإيرانية توظيف العادات والتقاليد الموروثة سياسيا ضد حكومة الرئيس أحمدى نجاد، إلا أن مراجع الدين بمن فيهم مرشد الجمهورية آية الله على خامنئى وقفوا ضد هذه العادات واعتبروها بعيدة من الدين مثل إشعال النار والقفز عليها فى آخر ليلة ثلاثاء من العام الفارسى والتى صادفت ١٦ مارس، حين سعت المعارضة لاستغلال هذه التقاليد التى اعتاد عليها الإيرانيون منذ مئات السنين، لكن الفتاوى الدينية أحبطت إلى حد بعيد هذا التحرك السياسى، إضافة إلى رغبة المؤسسة الدينية فى تنظيف هذه المناسبة التى ترتبط بعادات لا علاقة لها بالثقافة الإسلامية التى يقوم عليها النظام السياسى والتى تدخل فى إطار المصالحة التى سعى إليها الإيرانيون بين الموروث والعقيدة الإسلامية.

وقد وضع الإمام الخمينى حدا لبعض الدعوات التى برزت مع انتصار الثورة الإسلامية، والتى طالبت بإلغاء مراسم يوم النوروز باعتباره لا يمت إلى الثقافة الإسلامية بصلة، عندما احتفل بهذا اليوم، وأرسل بيانا للإيرانيين، وصار ذلك تقليدا سار عليه خلفه خامنئى، فى الوقت الذى لم تلغ العطلة التى تمنحها الحكومة للإيرانيين وتعتبر من أكبر العطلات الرسمية فى إيران.

ولم تنجح دعوات بعض علماء الدين لتقليص عطلة النوروز والتقليل من أهميتة لحساب المناسبات الدينية الأخرى، لكن النظام السياسى رفض مواجهة عواطف الإيرانيين، وترك الباب مفتوحا أمام الاحتفال بهذه المناسبة.

وإذا كان النظام السياسى الإسلامى قد اعترف بهذا اليوم القومى كحق من حقوق الشعب الفارسى، فإن بقية القوميات قبلت الاحتفال به لكن كل وفق طبيعته الخاصة. وشكل هذا يوما للتآخى بين القوميات والمذاهب والأديان والطوائف الإيرانية.

وربما تشذ العقيدة البهائية عن هذه القاعدة، لأن النظام السياسى فى إيران، لا ينظر إلى البهائيين كديانة معترف بها على غرار المسيحية واليهودية والزرادشتية، وإنما يتهمها بأنها حزب سياسى يرتبط بالصهيونية العالمية ويدار من المحافل الماسونية. لذلك فإن الدعاية لهذه الديانة محظورة فى إيران، كما يمنع أى تحرك اجتماعى لها.

أما الأعياد والمناسبات الدينية لبقية الأقليات الدينية والطائفية والمذهبية الممثلة فى مجلس الشورى كالمسيحية واليهودية والزرادشتية والتى تتمتع بحقوقها. فلا تتعرض لها الدولة كما أن القانون يكفل للأقليات هذا الحق.

وليس هناك اتفاق على أساس تاريخى للنوروز «يعنى اليوم الجديد باللغة الفارسية» يمكن الاستناد إليه لأن كل القصص التى أوردت «عيد النوروز» أو «يوم النوروز» كانت أساطير منقولة من موروث ثقافى اختلف المؤرخون فى تحديد بدايته.

ويرجع بعض المؤرخين الاحتفال بالنوروز إلى قدماء السومريين الذين قد يكونوا من أوائل المحتفلين به، وتورد إحدى أساطير السومريين أن إنانا Inanna السومرية somerian إلهة الحب المقابلة لعشتار البابلية إلهة الشهوة والحب لديهم اغترت بنفسها وبقوتها فذهبت إلى العالم السفلى عالم الموت الذى تحكمه أختها «أوتونيحال» للتغلب على الموت. وعند وصولها فقدت هناك أسلحتها ولم تستطع العودة بعدما تغلبت عليها أختها. هكذا انعدمت الشهوة لدى الإنسان والحيوان ووقف التناسل، بحسب الأسطورة البابلية، والشباب والجمال فى العالم بحسب النسخة السومرية وفى مدينة «الوركاء» تحديدا ابتهل الناس إلى الإله السومرى الأكبر «إنكى ENZI» لإعادتها إلى الحياة بحسب الأسطورة.

كانت عشتار مخطوبة لتموز DUMEZ إله الخضرة، وقد تقبل إنكى تضرع الناس وقرر أن تغادر عشتار العالم السفلى على أن يجد أحدا يذهب إلى العالم السفلى بدلا منها، فصعدت إلى الأرض مع حرس من العالم السفلى لتختار بديلها حيث وجدت تموز متنقلا بين الفتيات الجميلات لا يفتقدها. لهذا اختارته، وبموت تموز ماتت الخضرة على وجه الأرض فاستاء الناس وابتهلوا لـ «إنكى» مع أم تموز وأخته التى تبرعت للنزول بدلا منه إلى

العالم السفلى لكى يصعد هو إلى الأرض ليعيد الخضرة والفرح، تقبل انكى دعواتهم لهذا قرر أن يصعد تموز إلى الأرض مدة ستة أشهر على أن يعود إلى العالم السفلى فى الأشهر الستة التالية، وبهذا احتفل العراقيون القدماء بتموز العائد إلى الأرض من العالم السفلى بـ «عيد الدخول»، ومن علاماته انتشار الخضرة والأزهار على سطح الأرض وهو نفسه بدء السنة بحسب تقويمهم.

ومثلما تتحدث هذه الأسطورة عن ثقافة البابليين والسومريين، هناك أساطير عند الفرس تحدرت من الساسانيين، إذ تروى الأساطير أن الآلهة التى كانت مختبئة فى فصل الشتاء تحت الأرض تخرج فى أول الربيع إلى النور لتمنح الأرض البهاء والجمال ويقسم الإيرانيون العام إلى فصلين اثنين، فصل البرودة وفصل الحرارة، وجعلوا «مهركان» الذى عرب بـ «المهرجان» عيدا فى بداية الخريف و «النوروز» عيدا لانطلاقة فصل الربيع، وفى هذا الصدد نقل الفردوسى شاعر الحماسة القومية الإيرانية روايات أسطورية منظومة، وذكر أبو الريحان البيرونى فى كتابه «التفهيم لأوائل صناعة التنجيم» أن الإيرانيين قبل الإسلام احتفلوا فى الأيام الخمسة الأولى من عيد النوروز فى شكل عمومى ومشترك بين الملوك والرعية، إذ تقضى فى ذلك حاجات الناس وتقدم لهم العطايا والهدايا، أما اليوم السادس فقد سموه بنوروز الخاصة إذ يختلى فيه الملك بندمائه للهو والطرب والشراب، وتمتد فترة الاحتفالات بالنوروز شهرا كاملا. وفى عصر الساسانيين أى آخر إمبراطورية فارسية، كانت تتخلل احتفالات النوروز طقوس ملكية وشعبية مختلفة، منها أن الإمبراطور كان يلبس فى صباح ذلك اليوم لباسا فاخرا ويجلس وحيدا فى بلاطه ثم يدخلون عليه شخصا يتفاءلون به خيرا، ثم يحضر رجال الدين الزرادشتيون لقراءة الأدعية والصلوات وبعد ذلك يقدمون للإمبراطور كأس شراب ويضعون بالقرب منه قدرا من المال تبركا وتفاؤلا، فتنطلق الاحتفالات وتعزف الموسيقى، أما عامة الناس فيتراشقون بالماء، ويتهادون السكر، وفى المساء يشعلون النيران معبرين عن فرحتهم.

ويبدو أن عيد النوروز لا يرتبط بالديانة الزرادشتية أو بالديانة المجوسية التى كانت تقضى بعبادة النار، إلا أن النار كانت من الموروث الذى يرمز إلى الفرح والانتصار كما تعبر عن ذلك الأساطير المختلفة.

وللأكراد باعتبارهم من الآريين الذين يحتفلون بهذا اليوم، نسختهم الخاصة بهم ربما وضعت لتنسجم مع طموحاتهم السياسية والنضالية إذ وظفوا النوروز لـ «حالة سياسية»

تنسجم مع هذه الطموحات. والنسخة الكردية للنوروز هى أسطورة «كاوة الحداد» الذى تشبه قصته ما ورد فى أسطورة الشاهنامة الفارسية التى كتبها الشاعر الإيرانى أبو القاسم الفردوسى، وتروى عن ملك شرير سمى «الضحاك» لعن بسبب شره. إذ رفضت الشمس الشروق وكان من المستحيل نمو أى غذاء. الملك «الضحاك» لديه لعنة إضافية هى امتلاك أفعيين ربطتا بأكتافه. وعند جوعهما كان يشعر بألم عظيم والشىء الوحيد الذى يرضى الجوع كان أدمغة الأطفال. لذا كان يقتل كل يوم اثنين من أطفال القرى ويقدم دماغيهما إلى الأفعيين.

كاوة الحداد كره الملك بعدما ضحى بستة عشرة من أطفاله الـ ٧١ للأفعيين وعندما علم أن طفله الأخير وهو بنت، ستقتل، جاء بخطة لإنقاذها فبدلا من أن يضحى بها، ضحى بخروف، وأعطى دماغ الخروف إلى الملك من دون أن يميز الملك الأمر. وعندما سمع الناس بخدعة «كاوة» لجأوا إلى الحيلة نفسها، فى الليل يرسلون أطفالهم إلى الجبال مع «كاوة» ليكونوا فى مأمن. وعاش الأطفال فى الجبال ونظم «كاوة» منهم جيشا للقضاء على الملك الشرير. وبعدما أصبحت أعدادهم عظيمة بما فيه الكفاية، نزلوا من الجبال واقتحموا القلعة ووجه «كاوة» الضربة القاتلة إلى الملك الشرير «الضحاك» ولإيصال الخبر إلى أهل بلاد ما بين النهرين بنى مشعلا كبيرا أضاء السماء وطهر الهواء من شر عهد الضحاك. ذلك الصباح بدأت الشمس بالشروق ثانية والعشب بدأ بالنمو مرة أخرى. هذه هى بداية «يوم جديد» أو «نوروز» «نه وروز» كما يتهجى باللغة الكردية.

وبذاك يكون النوروز من أقدم المناسبات الاحتفالية فى العالم. حتى قبل ظهور الزرادشتية لكن الإيرانيين فى شكل خاص والآريين فى شكل عام، أطلقوا عليه اسم «عيد» تيمنا بالأعياد الإسلامية عندما اختلطت الثقافة الإسلامية بالموروث التاريخى وأخذ هذا الربط معنى أوضح فى العصر العباسى حين نقل مركز الخلافة فى عهد المأمون لفترة إلى خراسان الإيرانية. فذكر العيد شعراء عرب كأبى العلاء المعرى والبحترى والشريف الرضى والمتنبى وابن الرومى وأبو تمام وغيرهم. وفى الأدب العربى الحديث استخدم بعض الشعراء مناسبة نوروز رمزا كفاحيا وتحرريا للشعوب ضد الاستعمار كبدر شاكر السياب فى قصيدته «وحى النوروز» داعيا إلى تكاتف الشعبين الكردى والعربى ضد مخططات الاستعمار فى المنطقة.

و«النـــوروز» هو اليوم القومى للإيرانيين والأفغانيين وشـــعوب أخرى. وهو قديم قدم تلك الشعوب ولايعرف أحد كيف ومتى تكونت هذه المناسبة القومية الضاربة فى أعماق التاريخ.

وقد حبكت حول هذا اليوم التاريخى أساطير كثيرة طريفة.

ويمكـــن القول أن هذا اليوم هو عنوان الشـــعب الإيرانى وعصارة تاريخه العريق ويحمل فى طياته رواســـب حية غنية لكل ما مر من تطورات هامة ومن أحداث جســـام ويشبه هذا اليوم الفريد المنبثق من الطبيعة والبيئة. الشـــعب الإيرانى نفســـه فى تعامله مع الأحداث حيث خضع لعاديات الدهر دون أن يفقد جوهره وتلون بلون الحقب التى توالت عليه دون أن يتخلى عن صبغته الأصلية فهو قديم جديد على مر الأيام والأعوام. ومن أســـرار خلود النـــوروز وحظوته لدى عدد من الطوائف الإســـلامية أنه يطابـــق عندها اليوم الأول من برج الحمل مســـتهل الســـنة الهجرية الشمسية. وهكذا نجح «نوروز» بطريقة ذكية فى أن يؤمن لنفسه الديمومة التاريخية بالتوسل إلى إحدى الوقائع الإسلامية الكبرى.

وأبـــدت أمـــم أخـــرى اهتماما بيـــوم ٢١ مـــارس (آذار) واحتفلـــت به كعيـــد الربيع، وعيد الأم.

ويمتزج «النوروز» بكل أدوار التاريخ الإيرانى. الأســـطورى منه وغير الأســـطورى. وفى كل دور يتخذ لنفسه شكلا خاصا بذلك الدور ومتلائما معه.

وكلمة «نوروز» معناها: «اليوم الجديد» وكان الأريون القدامى أجداد الإيرانيين الحاليين يحتفلون بهذا اليوم على أنه يوم تجدد الحياة فى النباتات واخضرارها من جديد ويقيمون الأفراح فى كل مكان.

وكانوا يزعمون أنه يوافق اليوم الذى تم فيه خلق أول إنسان على وجه الغبراء كما كانوا يتصورون أن هذا الإنسان الأول كان يدعى «كيومرث» وكان أول ملك فى العالم وكلما تقدم الزمان. امتزج النوروز بأســـاطير وحكايات وبجميع الديانات التى عرفها الإيرانيون ومنها الزرادشـــتية التى تروى أن زرادشـــت أبصر النور فى الســـادس من برج الحمل أى خلال الاحتفالات بعيد النوروز التى تستمر على الأقل أسبوعا.

وبعـــد أن دخل الإيرانيون فى دين الله أفواجا أفلح «نوروز» فى الانســـجام مع الأجواء الإسلامية وبلغ به الأمر أن صار له دعاء عربى يقرأ بهذه المناسبة فى لحظة انزلاق الشمس من برج الجدى إلى برج الحمل. إذ يتلو عادة أحد علماء الدين من الإذاعة والتليفزيون على ملايين الإيرانيين فى داخل الوطن الإيرانى وخارجه الدعاء التالى:

يا مقلب القلوب والأبصار. يامدبر الليل والنهار. يامحول الحول والأحوال. حول حالنا إلى أحسن حال.

وهذه الاحتفالات النوروزية. التى تعلن تباشيرها على الناس فى زماننا بأدعية عربية. تحكى الأساطير الإيرانية عنها أن ملوك الآريين الأسطوريين مثل «جمشيد البيشدادى» و«كيخسرو الكيانى» كانوا يملكون آلة مثل الكأس يرون فيها كل شئ فى العالم ويطلعون عبرها على أحوال الناس وكانت تؤتى إليهم هذه الكأس فى يوم النوروز فقط وينظرون فيها ويبصرون أشياء كثيرة تخص بلدانهم وشعوبهم وكانوا يصدرون أوامرهم لتنفيذ بعض المشاريع والقيام ببعض الأعمال من جراء ما كان يتراءى لهم فى الكأس المرآة.

ولا ريب فى أن كل تلك القصص ما هى إلا أساطير الأولين ولاتؤخذ مأخذ الجد والحقيقة. لكن الباحثين الإيرانيين يستدلون من تلك الأساطير على تطورات عامة جدا مر بها الإيرانيون فى الحقب التى يسمونها ما قبل التّاريخ.

وجدير بالذكر أن الزعماء الروحيين كان لهم دائما دور بارز فى احتفالات النوروز ففى زمن الساسانيين. وهى الأسرة التى حكمت إيران قبل الإسلام كان رئيس العلماء الزرادشتيين وكان يدعى «مؤبد موبدان» والمؤبد كان بمعنى رجل الدين الزرادشتى مثل القسيس و«مؤبد مؤبدان» وكذلك «موبدان مؤبد» كان يعنى رئيسهم مثل رئيس القساوسة أو البطريرك. كان رئيس العلماء الزرادشتيين هذا. يتقدم الناس صبيحة النوروز ليسلم على الملك ويقدم له الهدايا ويهنئه بهذا اليوم السعيد ثم يقبل باقى رجال الدولة وأبناء الشعب لتهنئة مليكهم بالنوروز.

وتنسب الروايات الإيرانية أحاديث عديدة إلى سلمان الفارسى وإلى شخصيات إسلامية وفقهية لها شأنها حول أهمية «النوروز» وعراقته وأن تاريخه على صلة مباشرة بأحداث كبيرة لدى الأمم القديمة والأنبياء العظام. ولكن هذه الروايات لا يمكن الاتكال عليها والاستناد إليها.

ولكن المؤكد أن «النوروز» أحرز مكانة مرموقة لدى بعض الخلفاء العباسيين فالخلافة العباسية استعانت بالخراسانيين فى كثير من الشئون العسكرية وغير العسكرية وهؤلاء أدخلوا عادات وتقاليد إيرانية كثيرة إلى البلاط العباسى لا سيما فى عهد الخليفة العباسى المتوكل الذى أصدر تعليماته بأن يحتفل بهذا اليوم. أى بالنوروز. مثل أيام الملوك الساسانيين.

وأن يضبط يومه بصورة دقيقة ولم يمهله الأجل ليرى نتيجة توجيهاته تلك، وتحققت الفكرة فى عهد خليفته المعتضد وحسب ما نقل البيرونى سميت العملية الرياضية الفلكية تلك باسم ذلك الخليفة.

وللشاعر البحترى. أبيات أثنى فيها على الخليفة العباسى المتوكل لاهتمامه بتصحيح وضبط تاريخ الاحتفال بالنوروز، جاء فيها:

أن يوم النيروز قد عاد للعهد.

الذى كان سنة أردشير.

أنت حولته إلى الحالة.

الأولى وقد كان حائرا يستدير.

وأردشير هذا هو أول ملوك آل ساسان.

وقد قال الشعراء العرب شعرا كثيرا فى النوروز وفى يوم ثانى مثله كان يقام فى مستهل الشتاء ويسمى «المهرجان» وقد جمع المؤلف والراوية المعروف حمزة الأصفهانى مجموعة كبيرة من تلك الأشعار فى كتاب سماه «الأشعار السائرة فى النيروز والمهرجان» واعتاد الكتاب العرب والشعراء العرب على تسمية «النوروز» بالنيروز لأنه أسهل نطقا.

وأتى «أبو عثمان الجاحظ» الأديب والمحقق الشهير فى «كتاب التاج» على ذكر كثير من التقاليد العريقة لدى ملوك إيران ومنها الاحتفال بالنوروز.

وميزة هذا اليوم أنه يبدأ مع الإطلالة الأولى للربيع، ومن هذا المنطلق أخذه بعض الأقوام من الإيرانيين ونجد مثيلا له لدى بعض الشعوب الأفريقية وبعضها يسميه بنفس الاسم أو بما يشبهه من الأسماء كما فى تنزانيا.

ويعتقد الإيرانيون أن تمسكهم بهذا اليوم وتقاليده ساعد على صيانة هويتهم القومية والوطنية. وهذا هو السبب فى ازدياد تعلق الإيرانيين به، عاما بعد عام كمظهر من مظاهر ثقافتهم وحضارتهم.

وبعد عودة الإمام الخمينى إلى إيران وقيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية كان الإيرانيون قلقين على هذا التقليد القديم الذى احتفظوا به آلاف السنين أى الاحتفال والاحتفاء بيوم النوروز وسرت تكهنات وإشاعات غير قليلة بشأن الموقف الذى سيتخذه الإمام الخمينى ازاء هذا التقليد الآرى الفارسى الذى بقى صامدا فى وجه جميع الأقوام الذى احتلوا إيران فى مختلف مراحل التاريخ.

وحـل اليوم الموعود وهو نوروز عام ١٣٥٨ حسـب التقويم الهجرى الشمسـى الإيرانى (وكان يوافق ٢١ مارس (آذار) عام ١٩٧٩م واحتشد آلاف الناس فى ملعب رياضى كبير فى العاصمة الإيرانية ينتظرون وهم على أحر من الجمر قدوم رئيس الوزراء وكان وقتها المهندس بازركان ليدلى إليهم بالخبر اليقين. فأطل المجاهز العجوز واهتز الملعب بالتصفيق الحاد ثم اعتلى الرجل منصة الخطابة وزف إلى الجماهير المتلهفة الخبر السـار وهو صدور الإذن من الإمام بالاحتفال بالنوروز، وأردف قائلا. وها أنا قد لبسـت بدلتى الجديدة وأتيت إليكم. فاشرأبت الأعناق لتتملى رئيس وزراء الثورة فى ملابس العيد.

وهكذا ويبدو واضحا الآن مدى تمسـك الإيرانيين بتقاليد هـذا العيد وبعاداتهم القومية بأكثر التقليد القديم أقدامه على أرض النظام الجديد. مما كانوا يفعلون بالماضى خوفا من أن تذوب تلك التقاليد فى خضم الحماسة الثورية والتطلعات الشمولية الطموحة.

ولكن حكومة الجمهورية الإسـلامية الإيرانية غدت بدورها تهتم بهذا التقليد ويخطب بهذه المناسـبة قائد الثورة ورئيس الجمهورية ويوجهان كلمات للناس لتهنئتهم بهذا اليوم وحثهم على المحافظة على مكاسب الثورة والذود عن كيان الجمهورية الإسلامية.

وسقوط الجدار الحديدى وانهيار الاتحاد السوفيتى وقيام دول إسلامية حديثة منبثقة من النظام المنهار، هذه التطورات أحيت تقاليد جمة قديمة لدى الأقوام المسـتقلة حديثا ومنها احتفالات النوروز التى كانت سـائدة فى تلك الأصقاع من غابر الأزمان. وصاروا ينافسـون الإيرانيين فى الاحتفاء بهذا اليوم الذى يعتبر عيد الربيع وازدهار الطبيعة وتجدد شبابها. والتاريخ يحدثنا عن شـعراء عظام قاموا فى خوارزم وخراسـان وما وراء النهر وهى المناطق التى تدعى حاليا أفغانستان وأوزبكستان وقازاقستان وتركمنستان وتاجيكستان وقرغيزستان ونظموا مئات القصائد الغراء باللغة الفارسية وأحيانا العربية فى الإشادة بيوم النوروز.

❑❑❑